

## الإسلاميون الخائفون وآلهة آيلة للسقوط

الإسلاميون الخائفون وآلهة آيلة للسقوط

عبد الحميد سليمان



للهولة الأولى، يبدو الإسلاميون أقوياء، اللحي تعم البلاد، وهيئات «شرعية» تحكم المناطق المحرّرة من شريعة البعث التي تبدو إلى أفول، وأعلام سوداء ما فتئت تتراءى للمرّة الأولى في بلادنا، وإعادة تفسيرٍ ممنهجة لكل هذا الذي حدث: «من قال أنّ الثورة لم تكن منذ البدء إسلامية؟!»، هكذا وبكل بساطة يُختزل السوريون، مرّة أخرى، في نظرةٍ متحجّرة لجامع خرجوا منه، وفي رؤيةٍ قاصرةٍ لبُعدهم الحضاري كمسلمين، هذا الممتدّ أبعد كثيراً مما تعجز مخيلة البعض عن اختراقه... منطوق الطاغية ذاته ولكن من الناحية الأخرى، والفهم المسطح ذاته للسوريين ككائناتٍ تاريخية، لا فيكاك لها عن ماضيها، أو عن انطباع الطغاة عن ماضيها على أقلّ تقدير.

لكنّ الإسلاميين خائفون؛ يُخيفهم السوريون ونزقهم، هذا العصيّ أبداً على التأيير، نزق على كل شيء، وسُخْطُ أرعن لا يعترف بالتراتبية، وإسلامٍ سوريّ فريد اعتنق

سورينه بقدر ما اعتنقته، معقّد حضاريّ يخيف الإسلاميين ويؤرّق بناهم الثيوقراطية المزمعة، يجعلها بنىً فوقية بقدر ما كان البعث، منفصلةً عن واقع البشر تحتها، وتحتاج أبدأً إلى العنف كي تسود، كي تبقى، وكي تنجو من هذا الفيض القادم ليبتلع الجميع... الحرية، ومحكومية البشر بها. لقد غير السوريين الإسلام مراراً، طوّعه لهم وفتحوا له آفاقاً لم يعهدوا قبلاً... أمزّ آخر يُخيف الإسلاميين، يجعل بنادقهم دائماً ظاهرة ووجوههم من وراء حجاب. أمزّ لم يرقّ للسوريين قط أن يتخفى الرجال عن الرجال، ليس بعد كل هذا الذي دفعوه ثمناً للكشف على أي حال.

يخيف هؤلاء أنّ يعلموا أنّ عمق السوريين في الإسلام لا يقلّ عن عمق الإسلام فيهم، غيلان الدمشقي يُخيفهم، وعادةً سورية متأصلة... إثباع النصّ للعقل ولحوائج الناس، وتوقهم اللامتناهي إلى التغيير، وإلى مقارعة العالم وإثبات حقيقة أنّه يمكن لنا أن نكون أفضل... التقشّف المعرفي ليس خصلةً سوريةً على أي حال، وكذلك الاكتفاء بالمراتب الدنيا؛ تعصف بهذه المجموعة البشرية روح المنافسة، ونزعة أخذة إلى النمو، العمران، وحتى التفوق... عادات سورية عتيقة تتلاقح في أتونٍ قديم، يدعونه «الحضارة»، الحضارة لم تكن يوماً إلا عادةً للسوريين.

يعصّ الإسلاميون السوريون بفرهم اليوم، فعّلها البعث قبلاً، يشغلون تلك الهوة السحيقة بين نخب السوريين ومهمّشيهم. لقد تُرك المهّمّشون في بلادنا هناك على قوارع الطرق وفي الساحات ليلقوا مصيرهم، تُركوا لتأكلهم الوحوش الضارية، وتغتصب نساؤهم، وتُسحق رؤوس أطفالهم بالحجارة. النخب السورية كعادتها أبدأً، كانت في أماكن أخرى قصية، أرقها همّ السيادة، ولم تؤزّقها دماء هؤلاء الذين يُقتلون، وكأن الأوطان ترابّ وسماءً وحدود. لقد أسقط السوريون الأوطان دائماً، كانت عقودهم المدنية الصغيرة أكثر عمقاً في ذواتهم الجمعية من سواها، عادةً أخذها الإغريق عنّا... «المدينة»، أيضاً، سقّتها نخبنا المدنية بإسقاطها لعلّتها الأصيلة: «الحرمة»، حرمة الفرد على الفرد، وحرمة الفرد على الجماعة... ربّما لأنّ حرمة الأوطان المتخيلة كانت ماثلةً هناك، ربّما لأنّ نخبنا السورية كانت مسحورةً دوماً بالعقائد، وربّما لأنّها أسقطت دوماً حرمة الإنسان أمامها، هكذا كان سقوط السوريين نخبياً بعدم الاكتراث، واللامبالاة المقيّنة بحياة الناس وحياتهم.

لكن شغف السوريين بالحياة أسقط آلهة قبلاً، وقبلها نخباً لم تنحز إلى مهمّشيهما، وآلهةً أخرى آيلةً للسقوط، وكلّ في حينه، فليأخذ الإسلاميون حذرهم، ثم فليغرفوا من الزمن السوري ما استطاعوا، ربّما لأن وقت رحيلهم لم يحن بعد، السوريون اليوم مشغولون بأشياء أخرى: إسقاط الإله القديم، إطعام أطفالهم، ملجأ يقيهم مطر الشتاء القادم، وربّما التأمل قليلاً في هذا الركّام اللامتناهي من البؤس الذي تركه لنا آباؤنا. لكن السوريين المتعبين يعلمون أنّهم محكومون بالخلاص، محكومون

في نهاية الأمر بالحرية، إلى هذا الحدّ نحن طموحون، وليس في هذا ما يبعث على الشفقة. ما يثير الشفقة حقاً ملتحون يخفون رعبهم منا خلف بندقية.